بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدمة

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شئ قدير، والصلاة والسلام على رسول الله الامين وآله وأصحابه أجمعين وبعد :

ان تناول موضوع الوحدة الاسلامية يحتاج الى نوع من الدقة خاصة ونحن نتحدث عن الوحدة في الاندلس التي مرت بأكثر من دور اذ انهافي نهاية أيام الامويين في أواخرالقرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تحولت الاندلس من القوة الى الضعف ومن الوحدة الى الفرقة والتنافس ، وكانت نهايتها سنة (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) ، اذ ساءت الاحوال السياسية ، واضطربت الامور الاجتماعية ، واستقلت كل مدينة بحاكمها ، ومن بين تلك المدن مدن شرق الاندلس في العصرالثاني للأندلس الذي أطلق عليه عصر الطوائف (٣٩٩ ـ٤٨٤هـ/ ١٠٠٩ـ١٠٩١م)، وكا ن يعاني من الفوضى والاضطراب والفرقة ، وأدى هذا الى ظهور عدد من الدويلات عرفت (دويلات الطوائف) وعلى كل منها ملك ، ونجد أن هذه التسمية واضحة في وصف أحوال الاندلس وان تفاوتت في الاهمية والقوة والضعف حتى أصبحت الاندلس في حالة من الحزن تبعث على الأسى والألم .

شغل عصرالطوائف أكثر من ثمانين عاماً من التفكك والانحلال والانقسام ، اذ قامت على أنقاض الدولة المركزية التي بلغت قوتها وتماسكها ثم بعد ذلك كانت المنافسات والاطماع الشخصية بين ملوك الطوائف حيث ظهرت مع الفتنة ، وبسط كل واحد سلطانه على الاراضي التي استطاع أن يمد نفوذه عليها ولاتربطهم رابطة الا ماكان بينهم من الحرب الاهلية في سبيل الغنائم ، وقد وصف ابن الخطيب ذلك فقال:(وذهب أهل الاندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق الى حيث لم يذهب كثير من أهل الاقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعبّاد الصليب ، ليس لأحدهم في الخلافة ارث ، ولافي الامارة سبب ، ... اقتطعوا الاقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ...) [١]، وكان هؤلاء الملوك يعملون لانفسهم ، فقد كانوا ضعافاً في الدين ، وغلبت عليهم الاهواء الشخصية والانانية ، ويمكن وصف حالهم بما يتعلق

---

(١) ابو القاسم صاعد بن أحمد البغدادي الاندلسي (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م)، طبقات الأمم ، تحقيق: الاب لويس شيخو اليسوعي (د – ط، بيروت ، ١٩١٢م) : ص٦٤؛ لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعد السلماني ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، تحقيق : ليفي بروفنسال (ط٢ ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦م) :٢/ ١٤٤.

بأعظم مأساة في تأريخ الاندلس عند وقوع نكبة مدينة بربشتر[١]، وتخاذلهم عن انقاذها مما أدى الى الشعور بالوحدة والانتماء للدين والامة الاسلامبة على أثر الرسالة التي بعث بها ابو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر الى أهل الاندلس يدعوهم فيها الى الوحدة وجمع الشمل لمواجهة العدوالذي يهددهم.

استمرت الاوضاع في الاندلس يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الانانية ، وهانت عليهم مصالح الامة اذ باعوا بلادهم للعدو ثمناً للبقاء في السلطة ، وبقدر ما أصاب الامة من الضياع كان بسبب ما أضاعوا من الدين والاخلاق الاسلامية وانحرافهم عن الصراط المستقتم .

ويمكن القول أن العصبية والنزاعات القبلية التي ظهرت في الاندلس أدت الى الشتات والضياع (فتمخضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت بمن أتى بعدها الى ماكان أعضل وأدنى ، مما طوى بساط الدنيا وعفّى رسمها وأهلك أهلها) .[٢]

ومن الجدير بالذكر أن عصر الطوائف على الرغم من فقدان الاستقرار والنظام في السياسة العامة لهم الا انهم كانوا يتصفون بصفات تدعوا الى الاعجاب فقد كانوا من العلماء والادباء وكانوا حماة للعلوم ، وكانت قصورهم محافل لقادة الفكر الاسلامي ، ونبغ فيهم العلماء أصحاب المستوى العالي الرفيع ، وكان الاهتمام بالكتب والمكتبات في عصر الطوائف من الامراء أنفسهم اذ كانت المكتبات تزخر بالكتب العلمية النافعة، ومن هنا وقع الاختيار للبحث في هذا الموضوع لتوضيح جزء مهم من هذا التأريخ.

واقتضت طبيعة خطة البحث أن يكون بعد المقدمة المبحث الاول :اذ تناول البحث فيه عصر الطوائف وعرض البحث مختصرا ما يتعلق بالفتنة القرطبية وظهور دويلات الطوائف ، وعرض البحث في المبحث الثاني جهود أبرزعلماء الاندلس في الوحدة الاسلامية ،واما الثالث فقد تم عرض رسالة عبد الله بن يوسف بن عبد البرالى أهل الاندلس في الدعوة الى الوحدة الاسلامية،وقد عالجت الرسالة الفوضى الاجتماعية والاخلاقية، ولا أدعي الاحاطة والكمال ، فما كان من صواب فمن الله تعالى وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان ، والله الموفق والهادي الى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وهي مدينة تقع شرق الاندلس احتلها النصارى سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) ، ينظر: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت٧٣٩هـ/ ١٣٤٠م) ، مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي (ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م) : ١/ ١٧٦.

(٢)ينظر ابو عبد الله محمد بن احمد بن عذاري (ت٧١٢هـ/ ١٣١٢م) ،البيان المُغْرِب في اخبار الأندلس والمَغْرب ، تحقيق: ج.س كولان وليفي بروفسنال (د- ط ، ليدن ، ١٩٥١م) :٣ / ٢٥٠.

المبحث الاول

عصر الطوائف

الحالة السياسية قبيل دويلات الطوائف ، وتناولت ما يأتي :

اولاً: الفتنة القرطبية وأثرها:

يعد القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي من القرون التي ازدهرت فيها الاندلس، إذ نمت فيها حضارة عريقة متكاملة الجوانب، واعتمدت هذه الحضارة على الابداع فقدمت للناس منجزات رائعة، ويعود الفضل في ارساء الاستقرار السياسي والذي هو مهم لنمو الثقافة الى الامويين الذين استطاعوا تكوين دولة قوية في قرطبة، منذ تأسيسها حتى وصلت الاندلس الى قمة مجدها في عهد الحاجب المنصور[١].

وبعد ان انتهت حياة الحاجب المنصور لم تستمر حالة الاستقرار السياسي في قرطبة، ولم يستطع أولاده من بعده ان يكملوا مسيرته من بعد ، ولم يكونوا في مستوى المسؤولية الملقاه على عاتقهم ، مما هيأ الاوضاع في حدوث الفتنه في قرطبة سنة(٣٩٩هـ/١٠٠٩م)، واستمرت الى سنة (٤٢٢هـ/١٠٢٤م) وانهارت السلطة المركزية مما القى بظلاله على الوضع السياسي في الاندلس عامة ،وتحملت العاصمة قرطبة الخسائر المادية والمعنوية ، الامر الذي جر البلاد الى الفرقة والتناحر، فهيأت هذه الاجواء لظهور عدد من الدويلات في مدن الاندلس الرئيسة وبقيت قرطبة على ذلك سنوات عدة، [٢] وعند وصول الاخبار الى مدن الاندلس استأثر كل واحد بما عنده (وتغلب في كل جهة منها مغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقاسموا القاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد...)[٣]

وهكذا تمزقت وحدة الاندلس ودب الضعف في مناطقها، واصبحت عرضة للاعتداءات الخارجية وانتهى عهدها الزاهر.

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن ابي عامر المعافري(٣٦٦.٣٩٢هـ/ ٩٧٦-١٠٠٢م) الذي يعود أصلة الى اعرق الأصول العربية، وكان يتمتع بإمكانيات كبيرة في الإدارة ،وهو عظيم الذكاء والمهارة ،ينظر ابن عذاري ،البيان المغرب :٢٥١/٢؛ محمد بن عنان،دولةالإسلام في الأندلس (د- ط ، القاهرة، مؤسسة الخانجي، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) : ص٤٧٠.

(٢) ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب :٧٩/٣ ؛ أبو العباس احمد بن محمد بن احمد التلمساني المقري، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق: د. إحسان عباس(د- ط، بيروت ، دار صادر،١٩٦٨م): ٩٨٩٥/٣.

(٣) محيي الذين عبد الواحد بن علي المراكشي (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق : محمد سعيد العربان ومحمد سعيد العلمي (ط٢ ، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٨٠م): ص ٧٠.

ثانياً : **ظهور دويلات الطوائف** :

مرت الدولة الاموية في الاندلس بأحوال مختلفة , وقد بدت ملامح الانهيار في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي , واستمر الحال على هذا النهج الى الربع الاول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حتى بلغ الامر منتهاه لسوء سياسية بعض الخلفاء الامويين , فضجت الامة تسعى لاسقاطها (واتفق رأي الجماعة ـ اهل الحل والعقد بقرطبة على محو رسم الخلافة الأموية لعدم الصلوح في أهل بيتها , وسوء الجوار وفناء الأموال) [١] ولعدم استقرار الأوضاع السياسية وسوء الأحوال فقد اقتسمت الأندلس الى دويلات عديدة بدأت فيها أيام ملوك الطوائف, وكان سقوط الخلافة أدى الى تفرق الدولة الموحدة .

وقد أطلق بعضهم على هذا العصر (أيام الفَرَق)[٢] أي الخوف لهول ما وقع فيه من الفتن , ولم يكن هذا العصر يخلو من عوامل الخير الكامنة في النفوس , فدعت الى نبذ عوامل الفرقة ودعت الى الوحدة , وكان لهذا العصر بعض السمات البارزة مثل التسابق في بسط النفوذ بين ملوك الطوائف وكذا الاستعانة بالممالك النصرانية فكانوا يتسابقون في طلب الإمداد بالرجال والسلاح من ملوك النصارى للحافظ على كراسيهم والحفاظ على إطماعهم، وكانت بداية الامر الفتنة القرطبية، ونتيجة لهذه الهزيمة النفسية لدى ملوك الطوائف فقد فرضوا شروطا وساوموهم على ارض المسلمين مقابل الإعانة، وعملوا على إضعافهم باستنزاف الطاقات والثروات، بل بلغ الامر بهم الى أنهم كانوا يدفعون الجزية للنصارى نظير اعانتهم على أبناء جلدتهم فأصابهم الوهن , وقد وصف محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) هذا بقوله : (فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدى إليه رأي للاذنوش ملك قشتالة الاتوة , وهم كانوا أحقرفي عينيه وأقل من ان يحتفل بهم له)[٣] وكانوا يصورون الهزيمة نصراً ,واعطاء الاتاوات الى العدو سياسة ، وقد افتقد ملوك الطوائف الصفة الشرعية للحكم بعد انتهاء خلافة بني أمية في الاندلس لأنهم أمراء متغلبون فضلا عن ظلمهم للناس ، وفي أحداث الفتنة القرطبية عمت الفوضى وافتقد النظام وثارت الاحقاد بين عناصر المجتمع ، وكان اذا قيل هذا بربري فان السيوف تمزقه وبالعكس حيث كان البربر ينتقمون لانفسهم من أهل قرطبة حتى

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام : ١٤٧/٢.

(٢) ابو مروان عبد الملك ابن الكردبوس (ت بعد ٥٧٣هـ/١١٧٧م) تاريخ الاندلس، تحقيق: احمد مختار العبادي (د- ط ، مدريد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م) :ص٨٧

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ص١٩٣ ؛عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (د- ط، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) :٤/ ١٥٦.

قدمت صلاة العشاء في قرطبة أحياناً لعذر الخوف من البربر.[١]
وقد ادى هذا الى صحوة الامة والدعوة الى التوحد ، اذ كان لتسلل العدو الى أرض المسلمين واستيلائه على المدن وقعه الشديد على المخلصين، وخاصة بعد أن أصيبت الامة ببعض النكبات.

المبحث الثاني
جهود أبرزعلماء الاندلس في الوحدة الاسلامية

كان لعلماء الاندلس دورمهم في تحريك عملية الاصلاح ، وبث روح اليقظة في الامة الاسلامية وحثّها على طلب العمل لذلك ، وقد ساهم في هذا الامرعلماء أجلاء من الفقهاء والمحدثين والمؤرخين والادباء وغيرهم ، حيث دأبوا على نشرالوعي والرأي الحسن الموافق لمنهج الكتاب والسنة في حياة الامة وعزتها وكرامتها ، لان منهج الاصلاح يجب أن يكون نابعاً من عقيدتها الاسلامية التي تستند الى الكتاب والسنة فضلاً عن الافادة من الدروس عبرتأريخها ، حيث كان ذلك لمواجهة الخطر المحدق بالاندلس ، وكان من أبرز هؤلاء العلماء:
أولاً:أبومحمد علي بن أحمد بن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م) :
وهو من أبرزمن شارك في آرائه وفتاواه فوضع يد الامة على الداء لعلاجه , فقد سئل عن موقف المسلم من الفتنة الاندلسية وانقسام البلاد إلى دويلات وكيف تكون السلامة في المطعم والمأكل والملبس لمن سكن الاندلس في ظل الفتنة ؟ وما هو الدور الذي يجب أن يؤديه لإصلاح الحال أجاب :(واما ماسألتم عنه من امر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ماظهر من تربص بعضهم ببعض , فهذا أمرٌ امتحنا به , نسأل الله السلامة , وهي فتنة سوء أهلكت الاديان الا مَن وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب , وعمدة ذلك أن كل مدبّر مدينة أو حصن في شيء من اندلسنا هذه , أولها عن آخرها , محاربٌ لله ولرسوله وساع في الارض بفساد , ... غرضهم استيدام نفاذ امرهم ونهيهم)[٢] ثم بدأ يحذر الأمة من بعض الفقهاء الذين يزينون للحكام سوء أفعالهم فقال :(فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه , اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع , المزينون لأهل الشر شرهم ,

(١) ينظر : خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت ٥٧٨هـ/١٠٨٣م) ، الصلة (ط١ ، القاهرة ، نشر الهيئة المصرية للكتاب ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م) : ص١٤٠، ١٧٨ ،١٩٣ .

(٢) رسائل ابن حزم الاندلسي ، رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، تحقيق : احسان عباس (ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م): ٣/ ١٧٣.

الناصرون لهم على فسقهم)[١] ثم أوضح الطريق الصحيح للاصلاح وهو :(فالمخلص لنا فيها الإمساك للالسنة جملة واحدة الا عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر , وذم جميعهم ... فلو اجتمع كل من ينكر هذا بقلبه لما غُلِبُوا , فقد صح عن النبي (ﷺ) انه قال :((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده , فإن لم يستطع فبلسانه , فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان))[٢] , وقد أجاب عن السلامة من الفتنة كيف تكون ؟ فأشار الى أمرين :(أولهما: الورع ...)[٣] ، وقد رغّب فيه .

وتتضمن رسالة التلخيص ردوداً على بعض الاسئلة في المسائل الدينية والفقهية ، وقد وصلته من بعض أصدقائه ، وفيها ما يتعلق بأمر الفتنة ، ويتحدث أيضاً عن السلامة في المطعم والملبس والمكسب ، وقد حوت الرسالة نظرات ثاقبة وأحكام عادلة تبعث في النفس أشد الالم والاسى .

وقد وصف لنا الامام ابن حزم الاندلسي في رسالته الحال البائس الذي وصل اليه ملوك الطوائف حين قال :(والله لو علموا ان في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها , فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى الى بلادهم ,... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الاسلام وعمروها بالنواقيس , لعن الله جميعهم وسلّط عليهم سيفاً من سيوفه)[٤]ويبدو ان في كلام ابن حزم روح النقمة على ملوك دويلات الطوائف، وكانت سياستهم الداخلية موضع السخط من شعوبهم ، والطعن من المعاصرين لهم من المفكرين والعلماء،وكان بعض ملوك الطوائف يسعى للفتنة ويتصارع مع غيره ويتحالف مع النصارى لتمشيه أموره .

ثانياً :ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر(ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م):

وقد كان له دور بارز في عملية الاصلاح , فقد بثّ في ثنايا كتبه ماينبه فيه على سوء الحال ويصفه لطلابه وغيرهم من الذين كانوا يرتادون سماع حلقات دروسه في مختلف المدن الاندلسية , وقد دعا المجتمع الى الوحدة والاصلاح وحارب التفكك الاجتماعي والتسلط السياسي بكتبه ودروسه وفقاً للمنهج الاسلامي القويم وقد أراد توجيه المجتمع وجهة خالية من التباغض والاقتتال , وقد ثبت له ان ملوك دويلات الطوائف كانوا قد ابتعدوا عن منهج الشريعة الاسلامية , وأكد أن كثرتهم وتعددهم وتفرقهم هي التي اضعفتهم وشتت شملهم أمام النصارى حتى دارت الدائرة على المسلمين بحيث أصبحوا يؤدون لهم الضرائب ويعطونهم الاموال .

---

(١) المصدر نفسه : ٣/ ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٧٢. ١٧٣؛ والحديث أخرجه مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم(د– ط ، بيروت، دار احياء التراث العربي، د – ت) : ١/ ٦٩؛ احمد بن حنبل ، المسند (د–ط ، مصر، مؤسسة قرطبة): ٣/ ٤٩.

(٣) رسائل ابن حزم الاندلسي :٣/١٧٤. ١٧٨.

(٤) المصدر نفسه :٣/١٧٦.

ولا بد من القول أن ابن عبد البر قد ضمَّن كتابه بهجة المجالس[١]وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ابواباً يعالج فيها قضايا مختلفة وهي تمس الواقع السياسي والاجتماعي في أيام دول الطوائف , وقد أتبع منهجاً رائعاً في كتابه حيث يورد في كل من الابواب الآتية باب السلطان والسياسية [٢] , وباب الظلم والجور[٣] , وباب البغي والحسد[٤]، وباب الحق والباطل[٥]؛ حيث يورد الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين والامثال والأبيات الشعرية التي تحتوي المعاني التي قصدها.

ثالثاً : ابو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر الابن (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م):

فقد رزق ابن عبد البر بولد نشأ وترعرع في قرطبة تحت رعاية والده،وهو من طائفة الخير الباقية، ودرج على مادرج عليه اقرانه من الصبيان في التنقل بين الكتاب والتأديب وشب على ماشب عليه أقرانه في طلب العلم، وعندما بلغ مبلغ الرجال ببلوغه الحلم جلس الى شيوخ قرطبة يتقلى عنهم، فروى عن والده يوسف، وعن ابي سعيد الجعفري (ت٤٢٩هـ/١٠٣٨م) [٦] وغيرهم، حتى اصبح له شأن وفضل وبلغ مكانة علمية واجتماعية مرموقة شاع ذكره في الاندلس فكان (من اهل الادب البارع والبلاغة الرائعة والتقدم في العلم والذكاء) [٧]،وقد رافق والدة عند خروجه من قرطبة اول حصول الفتنة القرطبية، ولكنه عندما تزوج اخذ يتنقل بمفرده واستقر اكثر مدته في اشبيلية في ظل المعتضد بن عباد الذي رغب فيه واحتال عليه بشتى الطرق (ففاز به قدح عباد بعد طول خصام والتفاف زحام، فأصاخ ابو محمد لمقاله، وتورط في حباله)[٨]، وكانت براعة ابي محمد بن عبد البر في انشاء الرسائل وكتابتها هي التي جعلت المعتضد يسعى لاستمالته عليه (حتى حل من كُتّاب الاقليم

---

(١) طبع الكتاب بتحقيق: مرسى الخولي، ومراجعة عبد القادر القط (ط٢، يبروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م).

(٢) ابن عبد البر ، بهجة المجالس : ١/٣٣١- ٣٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ١/٣٦١-٣٧٠.

(٤) المصدر نفسه : ٤٠٦-٤٢٦ .

(٥) المصدر نفسه : ٥٧٩- ٥٨٩.

(٦) ابن بشكوال، الصلة: ص١٦٨.

(٧) ابو عبد الله محمد بن ابي نصر الازدي الحميدي (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس (د- ط ، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م) : ص٢٦.

(٨) الفتح بن خاقان الاندلسي، قلائد العقيان (د-ط ، مصر ، مطبعة التقدم، ١٣٢٠هـ/ ١٨٩٣م) : ص١٨٢.

محل القمر من النجوم ، وتصرف في التأخير والتقديم تصرف الشفرة في الأديم)[١]، وهذه الخصال جعلت المعتضد يقلده وزارة

القلم والسيف فَـلُقِبَ بذي الوزارتين [٢]، ولكن الحاسدين لم يتركوه فجهدوا إلى إراقة إراقة دمه، فسُجِنَ أبو محمد عبد الله بن يوسف ولما سمع والده أبو عمر يوسف بن عبد البر ماحصل بابنه سارع متوجها إلى اشبيلية ودخل على المعتضد وكان سبب نجاته [٣].

ثم إن ابن عبد البر بعد هذه الحادثة لم ينس دوره كأب في نصح ولده عبد الله ودعاه الى ترك محافل الأمراء ، والانتباه إلى ماينفع من العلم ، فكان لها أثر فيه ، فأتجه الى توجيه طاقته وكتب رسالته التي تحث على توحيد الكلمة بين ملوك دويلات الطوائف وتنبههم على الخطر الذي يهددهم نتيجة هذه الفرقة التي حلت بينهم , وكان لسقوط مدينة بَربُشتُر رد فعل قوي عند المسلمين في الأندلس حيث شحذت همم أهل الإصلاح من العلماء للدعوة الى وحدة الكلمة ونبذ التفرق . [٤]

---

(١) ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/ ١١٣٣م) ، الذخيرة، في محاسن الجزيرة، تحقيق: احسان عباس(د – ط، بيروت، دار الثقافة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) : ١٢٧/٣ ؛ أحمد بن سعيد الاندلسي، المغرب في حُلى المغرب ، تحقيق : د. شوقي ضيف (ط٢، دار المعارف، ١٩٦٤م) : ٤٠٢/٢ .

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ١٢٥/٣؛ محمد بن عبد الله بن الأبّارالقضاعي (ت٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) ، إعتاب الكُتاّب تحقيق: د. محمد صالح الاشتر (ط١، دمشق، طبعة مجمع اللغة العربية، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م):ص٢٢١.

(٣) المصدر نفسه : ص٢٢٠.

(٤) ابن بسام ، الذخيرة : ٣/ ١٧٣ . ١٧٩ .

المبحث الثالث

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية في رسالة أهل بَربُشْتُر بعد النكبة

عندما تسلل العدو إلى ارض المسلمين , وتمكن من الاستيلاء على كثير من المدن , كان لذلك وقعه وأثره الشديد على نفوس أهل الدين , وخاصة بعد نكبة مدينة بَربُشْتُر (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) [١] , , والتي ذهب فيها من الضحايا ستة آلاف قتيل وسبي مائة ألف آخرون[٢], وكان ذلك بسبب خلاف بين الأخوين يوسف بن هود[٣]، والمقتدر بن هود[٤] أدى إلى أن يخذل الأخ أخاه ليقع في يد العدو، وذلك بعد أن ارتكب سليمان بن هود قبيل وفاته خطأً في تقسيم مملكته بين أولاده الخمسة ، إذ كان ذلك نذيراً بالخلاف بين أولاده .

وقد تركت هذه النكبة أثرا كبيراً في ضمائر أهل الأندلس وذلك لارتكاب أبشع الجرائم المنكرة , وقد كتب أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد البر الابن رسالته على لسان أهل مدينة بربشتر إلى أهل الأندلس عامة وملوك ويلات الطوائف خاصة وهي كما يأتي :

(من الثغور القاصية والأطراف النائية المعتقدين للتوحيد المعترفين بالوعد والوعيد المستمسكين بعروة الدين المستهلكين في حماية المسلمين المعتصمين بعصمة الإسلام المتآلفين على الصلاة والصيام المؤمنين بالتنزيل المقيمين على سنن الرسول محمد نبي الرحمة وشفيع الأمة : الى من بالأمصار الجامعة والأقطار الشاسعة بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين وحماة المسلمين ورعاة الدين من الرؤساء والمرؤوسين سلام عليكم فإنا نحمد الله إليكم حمد من أيقن به ربا وجعله حسباً ولي المؤمنين وغياث المستغيثين مجرى الفلك في البحر بأمره (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا

---

(١) مدينة في شرق الأندلس على أفرع نهر إبرة بين مدينتي لاردة ووشقة , في الشمال الشرقي لسرقسطة احتلها النصارى سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) ؛ ينظر البغدادي , مراصد الاطلاع : ١/ ١٧٩؛ابن عذاري , البيان المغرب : ٣/ ٢٢٥؛ شهاب الدين ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)معجم البلدان (د – ط , بيروت , دار الفكر , ١٩٥٧م) : ١/٣٧٠ .

(٢) المقري , نفح الطيب : ١/٢١٥.

(٣) يوسف بن سليمان بن محمد بن هود وهو حاكم مدينة لاردة (ت بعد ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) ؛ ينظر: ابن عذارى ، البيان المغرب : ٣/٢٢٣ .

(٤) أحمد بن سليمان بن محمد بن هود الملقب بأبي جعفر المقتدر حاكم مدينة سرقسطة أحد كبار حكام الطوائف , وقد اهتم بالعلم وكان شغوفاً ومحباً لدارسة الفلك والرياضيات وهو الذي استرجع مدينة بربشتر وافتتحها عنوة (ت ٤٧٤هـ/١٠٨١م) , ابن الأبّار , الحلة السيراء ،تحقيق : د. حسين مؤنس (ط١، الشركة العربية للطباعة والنشر , ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م) : ٢/٢٤٧.

بإذنه)[1] , ونصلي على المصطفى من أصفيائه محمد خاتم أنبيائه المبتعث بأنواره الساطعة وحجاجه القاطعة على حين عفت رسوم الدين وخوت نجوم اليقين فجلا الشك وأدحض الأفك فعلية من السلام أفضل سلام ما وحد الرحمن وثني الفرقدان , أما بعد : حرسكم الله بعينة التي لاتنام , فأنا خاطبناكم مستنفرين وكاتبناكم مستغيثين وأجفاننا قرحى , وأكبادنا حرى , ونفوسنا منطبقة , وقلوبنا محرقة , على حين نشر الكفر جناحيه , وأبدى الشرك ناجذيه , واستطار الشر , ومسنا وأهلنا الضر أحسن ماكنا بالأيام ظناً وملتنا ظاهرة وفئتنا متناصرة لاتشل لنا يد ولايفل لنا حد حتى انقلبت العين وبان الصبح لذي عينين , وأي أمان من زمان فلما يخضر منه جانب إلا جفّ جانب , ولاتبرق منه بارقة إلا اتبعتها صاعقة الا ماوقى الله ، وننبئكم معشر المسلمين بعض ما نابنا في ثغورنا عسى أن تكونوا سبباً لنصرتنا ، فالمؤمنون اخوة ، والمسلمون لُحمة ، والمرء كثير بأخيه والى امه يلجأ اللهفان ، والى الصوارم تفزع الاقران ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من عميت عيناه ، وصمت عن الموعظة أذناه ونقص عليكم من نبأنا وما انتهت اليه حال ملأنا ما والله يوجع القلوب أسماعه كما قصم الظهور ، وأسخن العيون أطلاعه ، فأحاطت بنا كاحاطة القلادة بالعنق يسومونا سوء العذاب بضروب من الحرب والحراب آناء ليلها ونهارها تصب علينا صواعقها وترمي الينا بوائقها فانا لله وانا اليه راجعون على ما رأت منا العيون من انتهاك تلك النعم المدخرات وهتك ستر الحرم المحجبات والبنات المخدرات , وما تكشف من تلك العورات المستمرات فلو رأيتم معشر المسلمين إخوانكم في الدين , وقد غلبوا على الأموال والاهلين , واستحكمت فيهم السيوف , واستولت عليهم الحتوف , وأثخنتهم الجراح , وعبثت بهم زرق الرماح , وقد كثر الضجيج والعويل والنياح , ودمائهم على أقدامهم تسيل سيل المطر بكل سبيل ورؤوسهم قدامهم تطير وقلوبهم في أجسادهم تستطير ولا مغيث ولا مجير وقد صمت الاذان بصراخ الصبيان ونياح النسوان وبكاء الولدان وعلت الصوت وفشت المنكرات وتمرد الشيطان واشتهر الطغيان وظهرت الصلبان وأفصحت النواقيس ... , دماء تسفك , وستور تهلك , وحرام تنهك , ونعم تستهلك واقفاء تصفح وأعضاء تقطع ... , ومصاحف تمزق , ومساجد تحرق , فلا الأخ يعني أخاه , ولا الابن يدعو أباه ولا الأب يدني بنيه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ الْفَجْرِ الْبَلَدِ الشَّمْسِ اللَّيْلِ الضُّحَىٰ الشَّرْحِ ﴾[2] ولا المرضعة تلوي على رضيعها ولا الضجيعة ترثي لضجيعها... ، فما ظنكم معشر المسلمين وقد سيقت النساء والولدان مابين عارية وعريان قوداً بالنواصي الى كل مكان طوراً على المتون وطوراً على البطون ومشيخة الرجال مقرَنين في الحبال مصفّدين في السلاسل والاغلال مقتادين بشعور السبال ان استرحموا لم يرحموا وان

---

(1) سورة الحج , آية : ٦٥.

(2) سورة عبس ، آية :٣٧.

استطعموا لم يُطمعوا وان استسقوا لم يُسقوا ، ... ، وما ظنكم معشر المسلمين ، وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن وحلاوة الاذان مطبقة بالشرك والبهتان مشحونة بالنواقيس والصلبان عوضاً عن شيعة الرحمن والائمة والمتدينين ، والقومة والمؤذنين يجرهم الاعلاج كما تجر الذبائح الى الذابح يكبون على وجوههم في المساجد صاغرين ... ألا ترى ماحلّ بحملة القرآن وحفظة الايمان وصوّام شهر رمضان وحجاج بيت الله الحرام ، والعاكفين على الصلاة والصيام والعاملين بالحلال والحرام ، فلو شهدتم معشر المسلمين ذلك لطارت أكبادكم جزعاً وتقطعت قلوبكم قطعاً واستعذبتم طعم المنايا لموضع تلك الرزايا ... وليس الخبر كالعيان ولا الظن كالعرفان ، ولقد آن أن يبصر الاعمى وينشط الكسلان ويستيقظ النومان ويشجع الجبان)[١] .

وقد علّق ابن حيان على الاحداث وعلّل أسبابها ، وألقى اللوم على الناس والحكام بما ارتكبوا في جنب الله من ذنوب في اهمالهم وتقصيرهم في الاخذ بالشريعة مما جعلهم في حالة الفرقة والخصام التي أذهبت قوتهم فقال :(أركستهم الذنوب ووصمتهم العيوب ، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء ،ولا على معاني الغي باقوياء ، نشئٌ من الناس هامل يعللون نفوسهم بالباطل من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم واغترارهم بزمانهم وبعادهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه السلام ، وهو وهم عن النظر في عاقبة أمرهم وغفلتهم عن سد ثغرهم ...)[٢].

وتتجلى أهمية الرسالة في كونها شحذت همم أهل الاصلاح من العلماء والفقهاء والادباء وغيرهم الى الوحدة الاسلامية واعطى عدد منهم اهتمامه بهذا الامر على تفاوت همتهم وجهدهم ،وكذا أوضحت استنهاض همم ملوك دويلات الطوائف، واستثارة الحمية لاسترجاع مدينة بربشتر، لاسيما وأن الحملة على هذه المدينة تحمل الصفة الصليبية وأن قصدها السبي والغنائم من أراضي المسلمين، وتعد هذه الرسالة وثيقة نلمس فيها الحياة وهي تلقي ضوءا ساطعا على دور أهل الفكر والعلم والدين اذ تم فيها تشخيص الداء ، ووصف العلاج والدواء فكان لها ثمرات طيبة في وحدة الكلمة واجتماع الناس وتآلف القلوب ، ومن ذلك أن المقتدر بن هود جهّز جيشاً لذلك ، وانضم اليه المتطوعون من العلماء وغيرهم وبعد جهادهم هزموا الاعداء ودحروهم ، وعادت المدينة الى أهل الاسلام ثانية بعد سنة من احتلالها اذ كانت عودتها سنة (٤٥٧هـ/ ١٠٥٦م)أي قبل وفاة عبد الله بن يوسف بن عبد البر الابن ، مما يوضح دوره الفاعل والكبير في هذا النصر الكبير.

ولابد من الاشارة الى أن ابن بسام قد أوضح في كتابه[٣] بعد أن أورد الرسالة كاملة وهو أقدم من ذكرها ، وأشار الى أهمية مدينة بربشتر من حيث موقعها

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة : ٥/ ١٧٣. ١٧٩ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة :٣/ ١٠١ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب : ٢٥٥/٣.

(٣) ابن بسام ، الذخيرة :٥/ ١٧٩.

الجغرافي ، وأنها أول المدن الاندلسية التي فتحها المسلمون بقيادة موسى بن نصير ، فضلاً عن أنها قد رسخ فيها الايمان وفتح فيها المسلمون حلقات تدريس القرآن الكريم والشريعة الاسلامية بعد دخوله.

نتائج البحث

١- مثلت الحقبة التي عاشتها الاندلس عامة وقرطبة خاصة بعد الازدهار والوحدة والاستقرار انحداراً سياسياً ألقى بظلاله على مقومات الحياة في قرطبة وانتزع منها الهدوء والاستقرار السياسي نتيجة لضياع السلطة المركزية أي بعد الاستقرار والوحدة أصبح الانقسام والتنافس.

٢- استأثرت بعض القوى المتغلبة على العديد من المدن الاندلسية ، وأصبحت الاندلس في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي عبارة عن كيانات سياسية متناحرة بينها .

٣- تبين أن عصر الطوائف كانت له ميزة الازدهار الفكري الذي شهدته الاندلس، وأصبح التنافس بينها تنافسيا فكريا ، فانتشر العلماء بين أرجائها ومدنها وأستقطب حكام العديد منهم .

٤- دعا بعض العلماء الى رأب الصدع وتوحيد الكلمة في سبيل مواجهة الاخطار الخارجية المحدقة بالاندلس ،وخاصة بعد نكبة مدينة بربشتر .

المصادر والمراجع

ابن الابّار ، محمد بن عبد الله القضاعي (ت٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) :
١ - إعتاب الكُتاّب ، تحقيق: د. محمد صالح الاشتر (ط١، دمشق، طبعة مجمع اللغة العربية، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).
٢- الحلة السيراء ،تحقيق : د. حسين مؤنس (ط١، الشركة العربية للطباعة والنشر , ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م).
ابن بسام ابو الحسن علي الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/ ١١٣٣م) :
٣- الذخيرة، في محاسن الجزيرة، تحقيق: احسان عباس(د - ط، بيروت، دار الثقافة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).
البغدادي ،صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت٧٣٩هـ/ ١٣٤٠م) :
٤- مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي (ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).
ابن بشكوال ، خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/١٠٨٣م) :
٥- الصلة (ط١ ، القاهرة ، نشر الهيئة المصرية للكتاب ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).
ابن حزم الاندلسي، علي بن أحمد (٤٥٦هـ/١٠٦٣م):
٦-رسائل ابن حزم الاندلسي ، رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، تحقيق : احسان عباس (ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م).
الحميدي ، ابو عبد الله محمد بن ابي نصر الازدي (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) :
٧- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس (د- ط ، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).
ابن حنبل ،أبو عبد الله احمد (٢٤١هـ/٨٥٥م):
٨- المسند (د - ط، مصر، مؤسسة قرطبة).
ابن خاقان، أبو النصرالفتح بن محمد بن عبيد الله الاشبيلي الاندلسي(ت٥٢٩هـ/١١٣٤م):
٩-قلائد العقيان ومحاسن الاعيان (مصر ، مطبعة التقدم، ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م).
ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):
١٠ -أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، تحقيق : ليفي بروفنسال (ط٢ ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦م).
ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) :
١١- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (د- ط، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).
ابن سعيد ، علي بن محمد الاندلسي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) :
١٢- المُغرِب في حُلى المَغرب ، تحقيق : د. شوقي ضيف (ط٢، دار المعارف، ١٩٦٤م).
صاعد بن أحمد ابو القاسم البغدادي الاندلسي (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م):

١٣- طبقات الامم ، تحقيق: الاب لويس شيخو اليسوعي (د – ط، بيروت ، ١٩١٢م).
ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م):
١٤- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس طبع الكتاب بتحقيق: مرسى الخولي، ومراجعة عبد القادر القط (ط٢، يبروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م).
ابن عذاري ، ابو عبد الله محمد بن احمد (ت٧١٢هـ/ ١٣١٢م) :
١٥- البيان المُغْرِب في اخبار الاندلس والمَغْرب ، تحقيق: ج.س كولان وليفي بروفسنال (د- ط ، ليدن ، ١٩٥١م).
ابن الكردبوس ،ابو مروان عبد الملك (ت بعد ٥٧٣هـ/١١٧٧م) :
١٦- تاريخ الاندلس، تحقيق: احمد مختار العبادي (د- ط ، مدريد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م).
المراكشي ، محيي الذين عبد الواحد بن علي (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م):
١٧- المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق : محمد سعيد العربان ومحمد سعيد العلمي (ط٢ ، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٨٠م).
المقري، أبو العباس احمد بن يحيى التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) :
١٨- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق: د. إحسان عباس (د- ط، بيروت ، دار صادر،١٩٦٨م).
مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م) :
١٩- صحيح مسلم (د- ط ، بيروت، دار احياء التراث العربي، د – ت) .
ياقوت الحموي ،شهاب الدين (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) :
٢٠-معجم البلدان (د – ط , بيروت , دارالفكر , ١٩٥٧م).
عنان ، محمد بن عبد الله :
٢١- دولة الإسلام في الأندلس (د- ط ، القاهرة ، مؤسسة الخانجي، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).